العروبة والحضارات الأفريقية فى منظور جديد

للدكتور عبد العزيز كامل
الأستاذ المحاضر بالمعهد

حدود البحث وأهدافه*

١ — اتجاه جديد

فى أفريقية الآن اتجاه قوى نحو البحث عن الذات ومكانتها على الصعيد العالمى، ولهذا البحث أبعاده المكانية والزمانية والموضوعية ، وانعكس هذا الاتجاه — وبخاصة بعد استقلال كثير من دول أفريقية فى مطلع الستينات من هذا القرن على المنظمات الدولية فبادرت إلى المساهمة فى هذا البعث الافريقى .

١ — وتدخل فى هذا المجال مبادرة هيئة اليونسكو[1] إلى كتابة « التاريخ العام لافريقية » وعقدت من أجل ذلك عدة لقاءات لخبراء فى الافريقيات فى أبيدجان ١٩٦٦ وباريس ١٩٦٩ وأديس أبابا ١٩٧٠ .

وتكونت بتوجيه من السيد المدير العام ، اللجنة العلمية العالمية لكتابة التاريخ العام لافريقية وأقرت فى ١٧ مايو (آيار) ١٩٧١ قواعد أساسية لكتابة هذا التاريخ ونصت على أن يكون تركيبيا على أعلى مستوى علمى. وأن ينظر إلى القارة كوحدة مع إبراز العلاقات التاريخية بين مختلف أجزاء القارة التى طالما قسمتها البحوث المنشورة السابقة . وعلى هذا التاريخ أن يعنى بوجه خاص بالأفكار والحضارات والمجتمعات والمؤسسات . وأن يبرز قيمة التقاليد الشعبية والصور المتنوعة للفن الافريقى . وأن يستهدف التعريف بالتراث

(*) بحث ألقيت خلاصته كمحاضرة عامة فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة الكويت مساء الأربعاء ٢٩ من مارس (آذار) ١٩٧٢ بعنوان « حوار حول الحضارات الإفريقية » .

الافريقى الحضارى ناظراً إليه من الداخل ، ومبرزا العوامل التى تدعو إلى الوحدة .

وهذا التاريخ — حسب قرار اللجنة مقسم إلى ثمانية مجلدات كل منها فى سبعمائة وخمسين صحيفة .

والذى نود أن نقف عنده قليلا اتجاه اليونسكو إلى النظر إلى أفريقية كوحدة ، وأن التاريخ عليه أن يؤكد العوامل الداعية إلى هذه الوحدة ، مع التزام أعلى مستوى من المنهجية العلمية ، وأعطت اللجنة المجال واسعا ورحبا أمام الباحثين الأفريقيين ليكتبوا تاريخ قارتهم .

٢ — هذا النظر إلى القارة فى وحدتها ، هو الذى أخذت به منظمة الوحدة الأفريقية عند تكوينها عام ١٩٦٣ . بينما كانت جهود الدول الاستعمارية فى القارة داعية إلى تقسيمها — على الأقل — إلى قسمين كبيرين : أفريقية الزنجية أو السوداء جنوب الصحراء ، وأفريقية العربية شمال الصحراء .

وتبع نظرة القارة إلى ذاتها — فى وحدتها — أن تكونت اللجنة الاقتصادية الافريقية — التابعة للأمم المتحدة — على هذا الأساس ، بينما كانت المنظمات الاستعمارية السابقة — كالمجلس العلمى لأفريقية أو لجنة التعاون العلمى ، والتكنولوجى لأفريقية جنوب الصحراء — كانت هذه المنظمات ونظائرها ، تستهدف عزل العالم العربى عن الوجود الافريقى جنوب الصحراء[٢] .

٣ — وعندما دعا الرئيس الراحل نكروما إلى تكوين لجنة الموسوعة الأفريقية وبدأت اللجنة تمارس عملها تحت توجيه ديبوا ومن بعده هنتن ، كان أمامها ثلاثة اتجاهات أساسية :

١ — أن تقتصر دراساتها على أفريقية جنوب الصحراء .
٢ — أن تشمل القارة بمدلولها الجغرافى .
٣ — أن تشمل الأفريقيين فى القارة وفى المهاجر التى ذهبوا إليها واستقروا فيها كأمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية .

وانتهت اللجنة إلى الأخذ بالاتجاه الثانى وتوسعت فى دراستها لتغطى أفريقية كلها طارحة وراء ظهرها النظر إلى أفريقية جنوب الصحراء كشخصية حضارة متميزة ، وفى الوقت نفسه استبعدت دراسة الأفريقيين فى مهاجرهم .

ودافعت اللجنة عن وجهة نظرها فى اعتبار القارة وحدة حضارةعريقة، وأكدت دور الحضارات الأفريقية شمال الصحراء — وبخاصة — الحضارة المصرية القديمة — فيما وراء الصحراء جنوبا ، وكذلك المؤثرات الجنوبية التى وصلت إلى الأجزاء الشمالية من القارة[٣] .

٢ — ولكن هناك اتجاها آخر

وإذا كانت النظرة إلى القارة كوحدة قد أخذت تشق طريقها على المستويين العلمى والعملى فى القارة ، إلا أن هذا لاينسينا المعاناة التى تعرض لها هذا الخط الفكرى ولا زال يتعرض ، فضلا عما يلقاه على أرض الواقع عندما يراد ترجمته إلى صورة عملية . ولعل أقرب الشواهد على ذلك موجة الحركات الانفصالية التى شهدتها القارة على مستوى القطر الواحد ، والجهود السياسية والعسكرية التى بذلت لمقابلتها . والأمثلة على ذلك بين أيدينا من قضايا السودان الجنوبى فى شرق القارة وبيافرا فى غربها . هذا بينما لاتزال الأقلية البيضاء تمارس سيادة عنصرية باطشة فى جنوب أفريقية وروديسيا الجنوبية والمستعمرات التى تحت السيطرة البرتغالية . ومازال — ماوراء الزمبيزى جنوبا — مركز تهديد مستمر للنظر إلى أفريقية فى وجود واحد : حاضراً ومصيراً .

هناك إذن رغبة فى عزل جنوب القارة سياسياً واقتصادياً عن السيادة الأفريقية والحيلولة — فى الوقت نفسه — بين تماسك الأجزاء الواقعة شمال الزمبيزى ، وأبرز هذه الجهود ما يُبذل للتفرقة بين القطاعين الكبيرين فى أفريقية : شمال الصحراء وجنوبها .

وكما رأينا فى اتجاه الوحدة الافريقية ، كيف يتعاون الفكر والعمل ، فإن الاتجاه الانفصالى أيضا يتحرك على مستوى الفكر والعمل . ومن أجل ذلك سنحاول أن ندير حواراً علمياً موضوعياً بين الاتجاهين ، ونحن فى هذه المرحلة من مراحل إعادة كتابة التاريخ الافريقى وبنظرة شاملة للقارة تستهدف وحدتها .

٣ — مؤلف وكتاب

ومن المكتبة الافريقية التى تقتصر على دراسة أفريقية جنوب الصحراء آثرت أن أختار كتابا له مكانته فيها وهو « العامل البشرى فى تغيير أفريقية » للأستاذ ملفل هرسكفتس[٤] (١٨٩٥ — ١٩٦٣) وقد صدرت طبعته الأولى فى عام ١٩٦٢ والثانية فى ١٩٦٣ .

ولكن لماذا هذا الكتاب وهذا الكاتب ؟

فلنذكر كلمة عن مكانة كل منهما فى مجال الدراسات الافريقية :

الكاتب :

وقد صدر الكتاب الأول للمؤلف عام ١٩٢٨ عن « الزنجى فى أمريكا » بعد حصوله على الدكتوراه من جامعة كولومبيا بخمس سنوات . وما بين كتابه الأول والأخير رحلة طويلة فى الإنتاج الانثروبولوجى الذى اعتمد على دراسات ميدانية فى قضايا الزنوج فى أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية وأفريقية جنوب الصحراء، كما اعتمد على حصيلة وافرة من المعلومات وذهن مرتب مستوعب تبدو قدرته فى عمق وتنوع إنتاجه العلمى؛ هذا الإنتاج الذى يضم مؤلفات أصولية توفر للطالب والباحث مدخلاً علمياً سليماً مثل كتابه « الانثروبولوجيا الحضارية : ١٩٥٥ » وهو اختصار لكتابه الضخم « الإنسان وأعماله : ١٩٤٨ » ، ولمؤلفات قائمة على بحوث ميدانية مثل « قرية من ترينداد : ١٩٤٧ » و « معالم العقيدة الدينية فى داهومى : ١٩٣٣ » . ثم هو

يُعنى بالدراسات الموضوعية التى تغطى أكثر من إقليم ، فيكتب عن « الحياة الاقتصادية للشعوب البدائية ١٩٤١ » وعن « التفاعل الحضارى: ١٩٣٨ » .

وله نشاطه فى المجالس والمجامع العلمية : فهو أول من شغل كرسيا للدراسات الافريقية فى الولايات المتحدة ، وهو أول رئيس لجمعية الدراسات الافريقية هناك ومدير برنامج الدراسات الافريقية فى جامعة نورثوسترن منذ عام ١٩٤٧ . وقام بتدريس الانثروبولوجيا والإشراف على بحوثها فى جامعات كولومبيا وهوارد . وكان عضـــوا فى المجلس الدائم للمؤتمر الانثروبولوجى العالمى والمجلس التنفيذى للمعهد الافريقى الدولى ، ورئيس تحرير مجلة « أمريكان أنثروبولوجست » فيما بين أعوام ١٩٤٩ — ١٩٥٢ .

الكتاب :

وتبدو مكانة المؤلف العلمية — أكثر ماتبدو — فى كتابه الأخير الذى توّج به إنتاجه العلمى : فهو دراسة عميقة لافريقية جنوب الصحراء يحوى حصيلة ضخمة من المعرفة الانثروبولوجية تعنى — أساسا — بدراسة الجوانب الآتية :

(١) المفاهيم الافريقية التقليدية وتفاعلها مع المفاهيم الحديثة .

(٢) التفاعلات التى حدثت فى أفريقية مع غروب الاستعمار ومشرق التحرر .

(٣) عرض للمواقف المتطورة ووجهات النظر التى صاحبت — فى سنوات قليلة — قيام هذا العدد الكبير من الشعوب الافريقية المتحررة .

فالكتاب يركز أساساً على عوامل التطور والمقاومة وأثرها على الطابع العام للقارة . ويعود بنا العمق الزمنى للكتاب إلى أقدم عصور الحياة الافريقية ، وطبيعة سكانها وتطورهم فيها قبل التاريخ ، والطرائق التى سارت فيها حضاراتهم وكيف وجهت ردود أفعالهم تجاه القوى الأوربية . ثم هو يتابع تطور السلالات البشرية فى أفريقية جنوب الصحراء والشعوب التى

اتصلت بها من شمال الصحراء وآسيا وأوربا . وكيف أثر هذا على مشكلات حيازة الأرض وعلى الإسلام والمسيحية فى القارة . وكيف فتح التعليم آفاقا جديدة أمام الحياة الافريقية وبخاصة فى مجال حياة المدن حيث الكثير من الافريقيين .

وتنتقل الدراسة بعد هذا إلى مراحل الاستعمار وما بعد الاستعمار . ودور الحركات القومية فى تحقيق الاستقلال . وكيف أصبح القادةالسياسيون رؤساء دول يعملون على الصعيد العالمى.

ويدرس بعد هذا الاستجابات البشرية للتغيرات الصناعية والتكنولوجية والاقتصادية . وينتقل بعد هذا إلى جانب من جوانب الحياة الافريقية وأبرزها : عودة الافريقيين إلى كشف قارتهم بأنفسهم وما فيها من حضارة ، وصياغتهم الجديدة لفنهم الدينى وموسيقاهم وآدابهم .. كل أولئك للمزج القديم بالجديد فى نظام موحد من القيم .

٤ — حوار حول ثلاثة موضوعات

(١) مجال البحث :

وهو أول ما يسترعى النظر فى الكتاب :

فمنطقة الدراسة « أفريقيا جنوب الصحراء » ، يقتصر عليها الكتاب ، كما تقتصر على غرب أفريقية بحوث المؤلف الميدانية ، من أجل ذلك كان توازن الكتاب من وجهة النظر الافريقية محتاجاً إلى تدعيم بدراسات من الوطن العربى وبخاصة شمالالصحراء وهوما لم يقم به الكاتب ولم يُعن به الكتاب.

بل إنه ليكاد أن يعتبر « أفريقيا جنوب الصحراء » جزيرة تأتيهاالمؤثرات من شمال الصحراء وآسيا وأوربا .. نظرة تكاد أن تستوى فيها من حيث تأثير أجزاء من القارة وأجزاء من خارجها .. بل إن المؤثرات الافريقية الداخلية لتتراجع أمام السيل الضخم من الحقائق الذى تفيض به دراسته عن المؤثرات الأوربية .

وإذا ماكان بحثه عن الروابط الافريقية الأوربية أو الروابط عبر الأطلسى بين أفريقية والعالم الجديد كانت المعلومات والمراجع متوفرة . . وإذا ماكانت الروابط عبر الصحراء كانت المراجع محدودة إلى درجة لايملك حيالها النقد الموضوعى إلا أن يقول كلمته ..

قائمة المراجع تشمل نحو خمسمائة مرجع ما بين كتاب ومقال .. لكتاب عدد صفحاته فى أصله الإنجليزى خمسمائة . يضاف إليها فهارس دقيقة عن الموضوعات والأعلام فى خمس وخمسين صحيفة ..

ومع كل هذا تدور عينك فى قائمة المراجع فلاتجد — فيما يتعلق بالروابط الحضارية — مؤلفات سلجمان[٥] ، هجبن[٦] ، ميك[٧] ، دافيدس[٨] ، ايفامايروفتش[٩] .... وإن جاءت إشارات ضمنية سريعة لبعض أبحاثهم فى ثنايا الكتاب دون عرض دقيق لما عُنوا به من بحوث وماذهبوا إليه من رأى وما صلوا إليه من نتائج .

الجانب الذى عنى به هؤلاء الباحثون هو عرض وتأكيد الروابط الحضارية عبر الصحراء من أقدم عصور الحياة الافريقية ، كما عنى بعضهم — وبخاصة دافيدسن — بإنصاف العرب والتاريخ الافريقى وتطهيره من كثير مما علق به من زيف يحمل وزره كتاب استعماريون حاولوا أن يلبسوا ثوب الموضوعية العلمية لما وصموا به القارة من أباطيل أثبت البحث النزيه أنها عارية عن الصحة .

نعم لقد عرض الكاتب لكتاب بوفل[١٠] عن طريق التجارة عبر الصحراء. ولكن موضوع الروابط الافريقية عبر الصحراء لم يأخذ حقه من العناية فى الكتاب مع الأهمية التى ينظرها الافريقيون إليه . والموضوع يحظى بعناية متزايدة من الكتاب الافريقيين : من شمال الصحراء وجنوبها ، وهومظهر جديد من مظاهر عناية افريقية باعادة النظر فى حضارتها وروابطها .

ومن النماذج القريبة لهذه العناية أن هذا الموضوع كان محور المحاضرة التى

ألقاها الرئيس السنغالى ليوبولد سنغور بمناسبة منحة الدكتوراه الفخرية فى الآداب من جامعة القاهرة فى ١٦ فبراير (شباط) ١٩٦٧[١١] .

ولما كان موضوع بحث قدمه د. عبدالمنعم أبوبكر باسم الجمهورية العربية المتحدة فى المهرجان العالمى للفنون الزنجية الذى عقد فى داكار عاصمة السنغال فيما بين ٣١ مارس (آذار) و٢٤ أبريل (نيسان) ١٩٦٦[١٢] .

(٢) حركة التاريخ :

وحركة التاريخ الافريقى — عند المؤلف — بطيئة قبل التفاعل مع الغرب. بل إن أجزاء كثيرة من القارة يعتبرها — بلا تاريخ وأنها ظلت فى سبات حتى أيقظها أوربا . وإن كان يستثنى بعض أجزاء من القارة تأثرت بالحضارة العربية والإسلامية .

(٣) القيم الحضارية

٣ — جانب ثالث يبدو فى ثنايا الكتاب وهو أخلاقيات القارة قبل التفاعل الأوربى وتأكيد القيم الجديدة التى اكتسبتها القارة من هذا التفاعل .

هذه هى النقاط الثلاث الرئيسية التى أحاول أن أناقشها فى هذا البحث معتمداً فيه على مجموعتين من المصادر : أولاهما المصادر العربية مع عناية بما عرض منها للروابط الحضارية بين أقطار القارة الافريقية وبخاصة بعد دخول الإسلام .. والثانية المصادر الأوربية التى عرضت لهذه الروابط فى العصور القديمة ، وتتبعتُ النبض الحضارى وبخاصة بين مصر وأفريقية جنوب الصحراء وأكدت أصالة وعراقة وتنوع هذه الروابط ،وعنيت بتأكيد العمق الحضارى فى أفريقية وأخلاقيات القارة قبل الاستعمار وجنايته على التاريخ الافريقى علما وتشويها .. ثم إهدارا ونكرانا ..

وتأسيسا على هذه المصادر نستطيع أن نرى قارتنا فى منظور جديد نقترب به من الدقة التى نحتاج إليها فى تصور تاريخنا ثم تصويره . وعلى أساس فهمه نستطيع أن نضم إلى الاتساع الأفقى من التفاعل العالمى عمقا زمنيا يثرى الحاضر بالماضى ، ويستطيع بناء المستقبل على أسس أكثر صلابة وعمقا واتساعا .

الموضوع الأول

الروابط الحضارية عبر الصحراء

١ — طبيعة الصحراء فى الربط الحضارى

جوانب كثيرة من الروابط الحضارية بين الأقطار الافريقية المطلة على البحر المتوسط والأقطار الواقعة جنوب الصحراء يمكن أن نجد أسانيدها من الآثار والوثائق والمعالم الحضارية الحية .

ذلك لأن أثر الصحراء فى الوصل بين المناطق الواقعة على أطرافها يشبه من بعض الوجوه — أثر البحر: الواحات فيها كالجزائر ، والقوافل كالسفن ، ودليل القافلة كربان السفين . وعلى أطراف الصحراء تظهر الحاجة إلى قيام المدن حيث يوجد التغير البيئى والانقطاع فى وسيلة المواصلات. وهناك — كما يقول فيدال دى لابلاش —[١٣] سلاسل من المدن على امتداد حافة الصحراء . وعلى كل من شاطىء الصحراء الكبرى الشمالى والجنوبى — قامت الموانى كما قامت فى وسط آسيا . فى هذه الموانى الصحراوية تستطيع القوافل أن تجد الأمن والراحة بعد رحلة الصحراء ، وتستطيع أن توفر الدواب والمرافقين وتتبادل السلع والأخبار.

٢ — مع مصر الفرعونية

وقد عُنى أكثر من باحث بدراسة روابط عبر الصحراء :

(١) من هؤلاء سلجمان[١٤] الذى تتبع الصلات الحضارية بين مصر الفرعونية وأفريقية جنوب الصحراء . واستطاع فى محاضرة فريزر التذكارية التى ألقاها فى ليفربول ١٩٣٣ وما أرفقه بها من ملاحق ، أن يبين اتساع هذه الروابط ومداها ، وكيف أنها كانت تمتد من هضبة شرق أفريقية إلى غرب القارة . ولم يقتصر التأثير على مظهر واحد من مظاهر الحضارة ،

وإنما شمل تقاليد تربية الماشية واستخدام أدوات الزينة والآلات الموسيقية والأحفال الملكية وجوانب من العبادة . وافترض سلجمان طرقا كانت تتبعها هذه المؤثرات من مصر قبل دخول الجمل أفريقية فى العصر الرومانى :

فكان منها طريق يبدأ من رأس الدلتا فى مصر ويتجه غربا إلى سيوه ويتابع سيره بعد هذا غربا إلى الواحات الليبية — جالو والعجيلة — ثم ينحرف نحو الجنوب الغربى إلى واحات زويلة ومنها إلى منطقة تشاد ، أو يتابع سيره غربا إلى واحة غات ومنها يوازى الطريق السابق ويتجه جنوبا إلى كانو الحالية .

ومن الممكن أن تبدأ القوافل رحلتها من نقطة فى صعيد مصر ، فتتجه جنوبا بغرب إلى كردفان ودارفور الحالية ، أوتتابع سيرها مع النهر ثم تنحرف إلى السودان الشرقى — فمديرية كسلا الحالية — وما وراءها فى أرتريا ، أو تتابع سيرها جنوبا متجنبة منطقة السدود متابعة الأطراف الغربية لهضبة أثيوبيا حتى تصل إلى هضبة البحيرات الاستوائية .

٢ — وذهب هجبن[١٥] عند دراسة الإمارات الإسلامية فى نيجيريا إلى أن شعب الجوكون الذى يعيش على الضفة الشمالية لنهر بنوى — رافد النيجر — ترجع أصول ديانته إلى الديانة المصرية القديمة ، ومن المعروف أن هذا الشعب دخل نيجيريا من الشرق .

(٣) ويذكر ميك[١٦] أدلة كثيرة على تأثير مصر فى حضارة نيجيريا . وتبدو هذه المؤثرات فى مظاهر حضارية متنوعة كالتحنيط وبعض شعائر الدفن وصناعة الزجاج والآلات الموسيقية . ووجد ميك تشابها قويا فى تفاصيل القيثارة المستعملة — حتى الآن — فى غرب أفريقية والقيثارة المصرية القديمة التى مازالت مستخدمة فى بعض بلدان صعيد مصر . هذا إلى تشابه فى بعض العقائد الدينية . ويذهب ميك أيضا إلى أن المصريين القدماء استطاعوا التوغل فى أفريقية والوصول إلى غربها .

٤ — وفى بحث حديث عرض الدكتور عبد المنعم أبوبكر[١٧] للروابط الحضارية بين مصر القديمة وأفريقية الزنجية . وعُنى بأوجه التشابه فى العقيدة الدينية ؛ فالمصريون اعتقدوا فى الخلود بعد الموت ، وأن الجسم البشرى الذى ينبض بالحياة ويسعى فى الأرض ليس إلا صندوقا يحوى عناصر مختلفة هى التى ستبقى وتدوم . وهذه العناصر هى « الكا » و « اليا » و « الآخ » . ولكل منها خواصه وأهميته ودوره الذى سيقوم به بعد الموت . فالكا جسم معنوى أثيرى ، واليا عنصر الحياة ، والآخ هو الشخصية المعنوية . ويختلف عن الكا — الذى يسكن المقبرة ويستقر فى الجسد بعد دفنه وتحنيطه — فى أن الآخ لايعيش فى المقبرة ولايبقى على الأرض وهو يأوى إلى السماء نجما متلألأ .

وإذا كانت الدراسات التى وصلت إلينا عن معتقدات شعوب غرب أفريقية فى حياة الخلود بعد الموت لاتزال قليلة غير وافية ، إلا أن مانعرفه عن شعب « غانه » فى هذا الصدد يعطينا فكرة واضحة عن مدى تطابق أصول هذه العقيدة مع ماكان منتشراً فى مصر القديمة .

ومعلوماتنا فى هذا الشأن نستقيها من الكتب العديدة التى نشرتها الباحثة ايفا مايروفتس عن شعب « الاكان » الذى أقام دولة قوية ممتدة جنوبى نهر الفولتا الأسود منذ القرن الثالث عشر الميلادى . وبقيت تتمتع بسيادة مطلقة حتى تعرضت لهجمات « الاشانتى » وتصدعت أركانها حوالى عام ١٧٤٠[١٨] .

الناس هناك يعتقدون فى الخلود بعد الموت وفى وجود عناصر مختلفة فى جسم الإنسان لاتلبث أن تنفصل عنه بعد الموت . وهذه العناصر تكاد تطابق العناصر المصرية السالفة الذكر أى الكاواليا والآخ .

حياة الخلود عندهم ليست من نصيب الجسد بل هى نصيب « الكرا » التى تمثل فى صفاتها « الكا » عند المصريين القدماء .. فاذا مات الإنسان ، انفصلت وهى لاتصعد إلا بعد أربعين يوما (ولنذكر حفل الأربعين الذى لازالت له مكانته فى تقاليدنا حتى الآن) ولاتستطيع أن تبقى فى السماء إلا بعد

أن تقف أمام المحكمة ، فاذا ثبت أن صاحبها كان يعمل صالحا سمح تاكرا أن تنضم إلى « الكرابافانو » . ويعتقدون أن الأخيرة هى الأصل السماوى الذى يزود الفرد البشرى بالكرا التى تعيش فى جسده فى أثناء الحياة الأولى .. وهكذا تتحد الكرا الأرضية بأصلها السماوى .. وغير هذا يعتقد القوم هناك بأن الإنسان له « روح مقدسة » يسمونها « هنهوم » هى بمثابة نسيم الحياة (هوم معناها يتنفس) . فاذا ماحدث الموت انفصلت عن الجسد واتخذت هيئة طائر لتعود إلى « نيامى » أى المخلوق الأعلى فى السماء .والهنهوم — وفى هذا تشبه الكرابا فانو — تستطيع أن تزور الجسد فى الأرض . تماما كما اعتقد قدماء المصريين بالنسبة إلى اليا . بل إنهم ليقولون عنها إنها تصبح نصف طائر ونصف آدمى .

وثمة عنصر ثالث أطلقوا عليه اسم « سامان » أى الجسم المعنوى أو الروحى . وهو عبارة عن ظل الإنسان الذى ينتقل إلى الساماندو أى إلى العالم السفلى ليعيش فيه وهذا « الظل — لايذهب إلى العالم السفلى إلا إذا ثبت أن صاحبه كان من الآثمين الأشرار فى حياته الأولى . وتبقى هذه الظلال فى منفاها حتى تستطيع أن تطلب العفو من الأجداد المقدسين أى الملوك — الذين أمضوا حياتهم الدنيا وانتقلوا إلى السماء فى جوار إله الشمس يرعون شئون الأرض نيابة عنه ... ويبدو أن هذا العنصر هو « الآخ » عند المصريين القدماء مع اختلاف فى المصير . وهو اختلاف لعله حدث ليلائم بعض اتجاهات الحياة المحلية .

٦ — وقد عرضت أبحاث ايفا مايروفتس لموضوعات أخرى من التشابه الحضارى بين مصر القديمة وغرب أفريقية .. مثل مكانة الملكة الأم والملكة المقدسة أو تأليه الملوك وأحفال تجديد شباب الملك .. ثم مصاحبة حاشيته له عند موته ليتابعوا حياتهم معه فى الآخرة كما معه فى الدنيا .. جانب من هذه الشعائر درست معالمه وجانب آخر مازال باقيا .. بل إن هناك من الأدوات المستعملة فى الحياة اليومية مالايزال يشبه — إن لم يطابق — ما استعمله المصريون

القدماء .. وكان الاتصال — من الناحية الجغرافية — برا — كما سبق القول — وبحرا بالسفن التى تتخذ طريقها فى البحر الأحمر حتى شرق أفريقية .

٣ — بعد دخول الإسلام

وقد قويت الروابط الحضارية كثيراً بعد دخول الإسلام غرب أفريقية :

١ — وكثير من المراجع — وبخاصة الأوربية — تمر مروراً سريعاً على القرون الهجرية الثلاثة الأولى عندما تدرس الروابط الحضارية بين أفريقية شمال الصحراء وجنوبها .. وتبدأ دراستها بشىء من التفصيل من إسلام الملثمين فى القرن الثالث الهجرى ومواجهتهم مملكة غانة التى كانت وقتئذ فى أوج قوتها . بينما المصادر الإسلامية تربط ربطاً قوياً بين انتشار الإسلام فى بلاد المغرب وبين انتشاره فى غرب أفريقية . فاذا عرفنا قوة تأثير القواعد العربية الإسلامية شمال الصحراء استطعنا أن ندرك مدى تأثير هذه القواعد فى غرب أفريقية بطريق مباشر وأحيانا بطريق غير مباشر.

ولنقف قليلا عند سطور أوردها ياقوت الحموى فى معجم البلدان عندما ذكر مدينة القيروان[١٩] .

«كان عقبة بن نافع مقيما فى نواحى برقة وزويلة منذ ولاية عمرو بن العاص ، فجمع من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد اليه من معاوية وسار إلى أفريقية ونازل مدنها ، وأسلم على يده خلق من البربر ، وفشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان . فجمع عقبة حينئذ أصحابه وقال : انى رأيت أن أبنى هاهنا مدينة يسكنها المسلمون فاستصوبوا رأيه وبنى القيروان» .

والذى يستوقف النظر فى هذا النص قول(ياقوت) «وفشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان » ويجعل هذا من مبررات إنشاء القيروان فى منتصف القرن الأول الهجرة . ويقع السودان — عند ياقوت — فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة التى كانوا يقسمون الأرض المعمورة إليها فى عهده . ويميز

ياقوت بين بلاد السودان وأفريقية ، وكانت تبدأ من تونس.. مما يبين أنه كان يقصد على الأقل — الأجزاء الشمالية من غرب أفريقية بمدلولها الحالى .

٢ — ومن الطريف أن نلاحظ أن بعض المشارفة كانوا يختلفون فى شنقيط (موريتانيا الحالية) هل هى من المغرب أومن السودان . والذى يعنينا — أكثر من غيره — أن تحدث خلاف بينهم فى هذا الأمر .. ومهما تكن دوافعه أونتيجته فإنه يدل على « اتصال » قوى بين شمال الصحراء وجنوبها حتى أن دول الأطراف يعتبرها بعضهم شمالية والآخر جنوبية وإن كان صاحب كتاب الوسيط يقولها فى تحديد : شنقيط من المغرب على ما كنا نعهد ..[٣٠]

٣ — ويبدو من التقسيم التقليدى المتبع لأقاليم غرب أفريقية مدى تأثرها بالثقافة العربية . فإذا جئنا من الشمال بدأنا باقليم الصحراء فالساحل فالسودان فغانه .. الأول هو الصحراء النموذجية والثانى شبه الصحراء — الحشائش القصيرة — ويليه إقليم السفانا — الحشائش الطويلة والمروج — فاقليم الغابات الاستوائية . وكأن إقليم الساحل هنا — وهو فى الشمال ساحل هذا البحر الرملى الواسع[٣١] هوالأرض الخضراء التى تنتهى إليها القوافل بعد رحلتها الطويلة عبر الصحراء .

٤ — وقامت فى الأجزاء الشمالية والوسطى فى غرب أفريقية دول إسلامية قوية . وكان وجه هذه الدول نحو الشمال والشمال الشرقى والشرق ، أى نحو المغرب ومصر وسودان وادى النيل ومهد الإسلام فى الجزيرةالعربية . فالصحراء كانت حتى القرن التاسع عشر المعبر الرئيسى الذى يربط الدول الإسلامية فى غرب أفريقية ببقية أرض الإسلام . هذا بالإضافة إلى المعبر الأخضر — طريق المراعى — الذى يربط غرب القارة بشرقها جنوب الصحراء .

بهذا كانت الصحراء — إذن — حتى القرن التاسع عشر طريقا رئيسيا ، وشريانا ينبض بالحياة وتنتقل عبره المؤثرات الاقتصادية والثقافية والروحية .

أما القول بأن الصحراء كانت من عوامل الفصل أو أن الروابط كانت ضعيفة فلايستند إلى حقيقة من الأرض أو التاريخ . وهذا الطريق لم تتدهور تجارته وأهميته إلا مع التوغل الأوربى فى أفريقية . وهومالم يحدث بصورة فعالة إلامع انهيار الحضارات الافريقية تحت معاول الهدم والتخريب الذى بلغ ذروته فى القرن التاسع عشر . واستطاعت القوى الاستعمارية فى غرب أفريقية أن تتوغل من مراكزها الساحلية — بخاصة — وأن تسيطر على الدول الإسلامية الداخلية . وأن تقطع روابطها مع بقية العالم العربى والإسلامى ، وتوجهها نحو الموانى المحيطية حيث مراكز الحضارة الجديدة والقوى المسيطرة .

ولكن هذا التوجيه المفتعل لم يستمر إلا أقل من قرن ، استطاعت بعده كثير من دول أفريقية جنوب الصحراء أن تستعيد حريتها وتضع عنها بعض الأغلال التى كانت عليها، وأخذت تحاول — من جديد — إعادة توثيق روابطها مع الأقطار الافريقية شمال الصحراء .

ونتناول الآن الروابط الحضارية الإسلامية عبر الصحراء بشىء من التفصيل .

٤ — الروابط الثقافية والدينية

كان أداء فريضة الحج وطلب العلم من أبرز هذه الروابط . وكان هذا من أهم مظاهر الهجرات البشرية التى تتخذ أحيانا مظهراً هادئاً .. وأحيانا مظهراً رسمياً فيه الكثير من روعة الملك ومظهره وجوانب من التقدم الذى حققه غرب أفويقية فى ظل الإسلام :

١ — وقد درس الرحالة السويسرى الأصل جون لويس بركاردت فى مطلع القرن التاسع عشر أرض النوبة وشرق السودان والجزيرة العربية . وعنى برحلات مسلمى غرب أفريقية لأداء فريضة الحج وطلب العلم .

ويذكر فى كتابه « رحلات فى النوبه »[٢١] أن مسلمى غرب أفريقية — ويطلق عليهم فى السودان اسم التكارير — أو — التكارنة — وليس هذا —

كما يقول — نسبة إلى بلد تدعى تكرور ، كما ظن جغرافيو العرب — ولكن — وهذا رأيه — مشتق من الفعل « تكرر » أى « تنقى » بمعنى أن مشاعرهم الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن وأداء فريضة الحج .وهم لايسمون أنفسهم تكارته . وأكد كثير منهم لبركاردت أنهم لم يسمعوا بهـذا الاسم حتى بلغوا دارفور.

هذا الاسم يطلق عليهم أيضاً فى مصر . ولازالت ضاحية من ضواحى القاهرة تسمى « بولاق الدكرور » . ومن المرجح أن تكون التسمية راجعة إلى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق النيل إلى ساحل بولاق(٢٢) .

هؤلاء المهاجرون فى سبيل العلم والحج كانوا يفدون إلى الأزهر أويتابعون السير إلى مكة ويجاورون هناك متبركين بحفظ كتاب الله فى بيت الله . والحجاج القادمون من غرب أفريقية يسافرون — كما يذكر بركاردت — إما فى قافلة فزان وهى القافلة الكبرى وتتجمع فيها الطرق من غرب أفريقية — من السنغال إلى واداى — فى سيوه ومنها إلى وادى النيل فى مصر. وإما أن يأتى الحجاج بحرا من شاطىء المغرب . أما الذين يسكنون البقاع القريبة من سودان وادى النيل فيذهبون إلى مكة بطريق أسيوط — فى صعيد مصر — أو سنّار فى شرق السودان .

ويصف بركاردت مايلقاه حجاج غرب أفريقية من مظاهر الإخاء والرعاية ، وكيف أنهم كانوا ينزلون ضيوفا فى المساجد ، ويستطيعون العمل إن أرادوا التكسب .وأكثرهم يسلك طريق القصير . ولهم فى الأزهر رواق يسكنه المقيمون والعابرون وتجرى عليه الأرزاق . وكان المارّون بالقاهرة يتخذون طريق قافلة الحج الكبرى إلى مكة .

٢ — كذلك كثرت رحلات سلاطين غرب أفريقية إلى الأرض المقدسة وزيارتهم مصر لتدعيم الروابط العلمية والدينية . ذكرت هذا المراجع الإسلامية كتاريخ السودان للسعدى وصبح الأعشى للقلقشندى وابن بطوطة

فى رحلته وابن خلدون وابن الوردى وابن فضل الله العمرى ومحمد كعت التنبكتى فى« تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس[٢٣] .

ولاشك فى أن الصلات الإسلامية بين مصر ودول غرب أفريقية أدت إلى نمو الروابط العلمية والثقافية بين الطرفين . من ذلك أن السلطان منسا موسى انتهز فرصة وجوده فى مصر[٢٤] فابتاع جملة من الكتب ليوفر لأهل بلاده جانبا من الثقافة الإسلامية . كذلك كانت جامعة تنبكت الدينية التى أنشئت نحو عام ١٣٣٥ م تحاول دائما أن تحتذى أساليب الأزهر فى التعليم . ومما يدل على استقرار علماء مصريين فى غرب أفريقية ما يذكره ابن بطوطة فى رحلته من أنه عندما مرض فى مدينة مالى لم يسعفه بالعلاج إلا أحد المصريين[٢٥] .

وقد تكررت هذه الصورة من بعد على يد سلاطين السنغاى فى القرن التاسع الهجرى (السادس عشر الميلادى) . واستمرت هذه العلاقات مع سلاطين كانم وبرنو فى منطقة تشاد . واستمر نفوذ سلطنة برنو حتى القرن التاسع عشر الميلادى وإن كانت ذروة قوتها فى القرن السادس عشر .

٥ — المراكز الحضارية

١ — وفى غرب أفريقية ازدهرت مراكز الحضارة الإسلامية، اجتذبت العلماء فى أرجاء العالم الإسلامى . وأهم هذه المراكز تنبكت (تمبكتو) وتقع هذه المدينة على ثنية النيجر على خط عرض ١٧° تقريبا ؛ فهى بارزة فى الصحراء وتنتهى إليها طرق قوافل لها أهميتها وخطرها . كما أن موقعها متوسط فى غرب أفريقية بين المحيط الأطلسى وحوض بحيرة تشاد . فى هذه المدينة اجتمع علماء من المغاربة والأندلسيين والمصريين والحجازيين واجتذبت طلاب العلم من كافة أجزاء غرب أفريقية . ويشبه مسجدها الجامع الكبير المعروف باسم مسجد سنكورى الجامع الأزهر من ناحية المكانة العلمية فى غرب أفريقية ، وكان بينهما تعاون ثقافى أشرنا إلى بعض جوانبه من قبل . ولقد

شهد المؤرخ الفرنسى دييوا أن القرن السادس عشر كان أزهى العصور التى مرت بتنبكت وكانت حينئذ فى أوج مجدها قبل الصراع بينها وبين المغرب .

فى فترة ازدهارها اتصلت بالقاهرة ورحل علماؤها إلى مصر للاتصال بالأزهر ودعموا صلاتهم بإمام مصر وعالمها جلال الدين السيوطى . وقد تحدث السعدى عن العلماء المصريين الذين زاروا تنبكت وقضوا مدة للتدريس بمعاهدها وكان يفد إليها الطلاب من السنغال والنيجر وإمارات الهوسا والبرنو والكانم فى طلب العلم ثم يرحلون . ونبغت منهم طائفة وصلت بالعلم إلى الأمارة .. كما أشار السعدى أيضاً إلى بعض الكتب التى كانت تدرس فى المعهد وهى من تأليف علماء من المشارقة والمغاربة[٣٦] .

٢ — وتبدو معرفة جغرافى العرب بالمراكز الحضارية والعلاقات المكانية فى غرب أفريقية فيما أورده البكرى (المتوفى عام ٤٨٧ هـ) ولنجتزىء منه بالنقول الآتية :

(أ) « وبلاد غانة قوم يسمون بالهنيين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام . ويعقب البكرى على هذا بقوله وهم على دين أهل غانة .. بيض الألوان حسان الوجوه »[٣٧] .

(ب) « وإذا سرت من غانة تريد طلوع الشمس ، تسير فى طريق معمورة بالسودان إلى موضع يقال له أدغام ».. ثم تسير من هناك أربعة أيام إلى موضع يقال له رأس الماء . وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان وعليه قبائل من البربر مسلمون يسمون مداسة وبازائهم من الشطر الآخر مشركو السودان »[٣٨] .

(جـ) « فأما الجادة من غانة إلى تاد مكة وبينهما مسيرة خمسين يوما .. وتاد مكة أشبه بلاد الدنيا بمكة . ومعنى تاد مكة هيئة مكة . وهى مدينة كبيرة بين جبال شعاب . وهى أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكوا . وأهل تاد مكة بربر مسلمون ...[٣٩] .

(د) ويعتمد ياقوت عند دراسة الكائم على البكرى ثم يقول « ويزعمون أن هناك قوما من بنى أمية صاروا إليها عند محنتهم ببنى العباس وهم على زى العرب وأحوالها »[٣٠].

٣ — ويبدو من هذه الاقتباسات .

(أ) المجال الجغرافى للدراسة المقارنة بين المراكز الحضارية : فهناك أولا مقارنة على مستوى غرب أفريقية نفسها ، كما أجراها البكرى بين تاد مكة وكل من غانة وكوكوا .

(ب) ومقارنة على مستوى العالم الإسلامى كما أجراها بين مكة وتاد مكة .

(حـ) ثم هناك التحديد الدقيق للعلاقات المكانية والمسافات .

(د) وهناك المقارنة بين السلالات البشرية من الناحية الطبيعية ثم أسباب الهجرة والاستيطان وربطها بأحداث المشرق العربى كما فى هجرة بنى أمية .

٦ — الروابط الاقتصادية

لم تقف الصلات بين غرب أفريقية ومصر عند الجوانب الثقافية والدينية. وإنما امتدت إلى الجوانب التجارية والاقتصادية بعامة .

وكانت هذه الروابط متبادلة . فإلى غرب أفريقية رحل واستقر نفر من تجار مصر، كما وفد إلى مصر واستقر فيها نفر من تجار غرب أفريقية .وتعاونت سلطات مصر وغرب أفريقية على تأمين طرق التجارة عبر الصحراء . وكان لتنبكت منزلتها الاقتصادية إلى جانب منزلتها الثقافية والدينية .واجتذبت تجارة الأجزاء الداخلية من غرب أفريقية،وأصبحت أكبر مستودع لتبر الذهب وجاءها التجار من أقطار الإسلام ؛ مغاربة وأندلسيون ومصريون وحجازيون . وتعاملت فى القرن الخامس عشر مع الثغور الايطالية وبخاصة فلورنسا بطريق

تونس وطرابلس واتصلت بشبكة تجارية بالمغرب ومصر وسودان وادى النيل وما وراء هذه الأقطار فى أوربا وآسيا .

ومن سلطنة مالى كانت تخرج كل عام قافلة كبيرة تتكون من اثنى عشر الف جمل فى طريقها إلى القاهرة . ويعلق بوفل على هذا الرقم فيقول « وإننا حتى لوقلنا بشىء من المبالغة فى هذا الرقم فإنه يدل على أن التجارة بين مالى ومصر كانت لها قيمتها . وكانت هناك مناجم نحاس عند مدينة تكيدة وموقعها فى مالى غير محقق . وكان نحاس تكيدة يجد طريقه إلى أسواق كثيرة منها أسواق مصر[٣١] .

كذلك كان لسلطنة كانم روابطها الاقتصادية مع مصر . ورحل طائفة من أهلهاإلى مصر واشتغلوا بالتجارة الخارجية ، واستوردوا غلات من غرب أفريقية والسودان واليمن والهند والصين واستقر منهم نفر فى مدينة قوص وأصبحت لهم مركزاً ، وكونوا لهم نقابة قوية كان لها نشاطها التجارى الكبير ،وكان لهم رئيس اعترف به المماليك وأطلق عليه اسم رئيس الكارمية[٣٢]

ونمت ثروة بعضهم نمواً عظيماً حتى أصبحوا يقومون فى عالم التجارة بما تقوم به البنوك الكبيرة من إقراض على المستوى الدولى ، لمصر والبلاد المجاورة[٣٣] .

يبدو من هذا العرض المجمل تنوع وعمق الروابط الحضارية بين مصر وغرب أفريقية. وهى روابط لها أعماقها فى العهد الفرعونى ولها ازدهارها بعد دخول الإسلام،عرض لها المؤرخون والجغرافيون المسلمون فى مؤلفاتهم وسجلها الرحالة الأوربيون الذين زاروا هذه الأقطار فى ازدهارها . . وأن هذه الروابط أضعفتها المؤثرات الاستعمارية،ولكنها تحاول الآن أن تستعيد قوتها فى جهود مشتركة من أجل مستقبل أفريقية .

ولم تعد الروابط مقتصرة على الصحراء وإنما برزت أهمية المواصلات البحرية والجوية. وبدأت خطوات القارة تنتظم على طريق يحاول أن يجمع الجهود مع تكوين منظمة الوحدة الافريقية واجتماع زعماء القارة فى أديس ابابا

لأول مرة فى مايو (آيار) ١٩٦٣ .. ورغم ما تلقاه القارة من عراقيل الاستعمار الجديد والنكسات التى تصاب بها الجهود الافريقة البناءة إلا أن النظرة الشاملة إلى القارة فى أعماقها التاريخية وتشابك مشكلاتها المعاصرة وخطواها على طريق المستقبل ، تكسب أرضا جديدة .

٧ — مراحل حضارية ثلاث

وصفه ة القول أن الروابط الحضارية عبر الصحراء مرت بثلاث مراحل رئيسية :

(١) مرحلة أولى طويلة : ترجع إلى أعمق عصور الحضارة الافريقية، لها قمتان رئيسيتان : الأولى مع ازدهار الحضارة الفرعونية، والثانية مع ازدهار الإسلام واستمرت حتى القرن التاسع عشر.

(٢) مرحلة السيطرة الاستعمارية: ومطالعها متداخلة مع أفول المرحلة الأولى. وحدث التداخل ما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر. وفيها اشتدت قبضة السيطرة الاستعمارية على قلب أفريقية منذ القرن التاسع عشر إلى منتصف العشرين ، وتمزقت الروابط بين الأقطار الافريقية ، وأصبحت صلة كل قطر افريقى أقوى بالدولة الاستعمارية — التى سيطرت عليه — منها بصلاته مع جيرانه الافريقيين . وارتبط بهذا غزو اقتصادى حوّل الاقتصاد المحلى بما يتفق مع مصالح الدولة الاستعمارية ، وغزو ثقافى قضى على كثير من الثقافات المحلية والهياكل الاجتماعية والأوضاع السياسية التقليدية .

(٣) مرحلة الانطلاق التحررى : وهى مرحلتنا الحالية — مرحلة صناعية أوصياغة هيئة حضارية جديدة للقارة تحاول أن تحقق هدفها الكبير من الوحدة والتعاون والحرية، وإن لقيت فيها كثيراً من العقبات التى يضعها الاستعمار الجديد فى طريق التطور .

ويبدو من هذا أن « الفصل » بين شمال الصحراء وجنوبها إنما هو «مرحلة عارضة » فى تاريخ القارة بين مرحلتين تضرب أولاهما بجذورها فى أعماق تاريخنا القديم ، وظلت مستمرة على درجات من الضعف والقوة إلى القرن التاسع عشر . ثم أخذت تستعيد قوتها مع التحرير والتطور فى طرق المواصلات . وهى فى تطورها المعاصر محاولة لإعادة « قوى الجذب المركزية » الطبيعية فى القارة محل قوى الطرد المركزية التى جهد الاستعمار فى أن يصنع لها مقومات وأن يرسى لها دعائم .

إن الوعى الافريقى الآن بالنظرة العلمية — أخذ يكسب جديداً فى مسيرته نحو النظرة الواحدة إلى القارة ، وهى نظرة يمكن أن يثريها العلم ، لتكون من هذه الجهود روافد تمد تيار الوحدة — دائما — بطاقة جديدة .

الموضوع الثانى

قارة لها تاريخ

عقد دافيدسن[٣٤] فصلا عن « مدن الحجر الجميلة » درس فيه التفاعل الحضارى بين العناصر المقيمة فى شرق أفريقية، ترجع أصولها إلى الأقطار المطلة على المحيط الهندى ، وبين البرتغاليين ومن تبعهم من العناصر الأوربية منذ العقد الأخير من القرن الخامس عشر . وأشار إلى المراحل التى مرت بها « نظرة » الأوربيين إلى شرق أفريقية بخاصة وافريقية جنوب الصحراء بعامة ... ابتداء من الأحلام الأسطورية بكنوز سليمان ومملكة القديس يوحنا والأرض التى تفيض بالخيرات ... ثم الغارات المحمومة على المدن والأقطار الافريقية فى استغلال هدمى مدمر ، ثم محاولات تبرير ماقام به الأوربيون من تجارة شائنة عبر الأطلسى فى الرقيق .. ثم محاولات حديثة للتردد إلى القارة .. أو إعادة كشفها من جديد .

ومرة أخرى لايسعنا إلا أن نسجل أن جميع ماكتبه دافيدسن لم تحظ من هرسكفتس حتى بمجرد الإشارة إليه ، فضلا عن مناقشة مابه من آراء دعمها بمراجع ووثائق لم تحظ هى بدورها بعناية هرسكفتس ، رغم أنها أبحاث أصيلة وميدانية .

١ — النظرة الأولى

فعندما وصلت سفن داجاما إلى خليج مدغشقر فوجئت بأكبر مفاجأة لقيتها فى رحلتها .. ثم توالت المفاجآت بعد هذا .

لقى داجاما وملاحوه مرافىء تطن كخلايا النحل ومنها ساحلية عامرة. وفرحوا عندما وجدوا بين البحارة رجالاً عبروا المحيط الهندى مرات ، ويعرفون دقائق مرافئه . وعندهم خرائط متقنة لاتقل عما يرسمونه فى أوربا وتفوقها إتقانا فى بعض الأحايين .. ذلك لاعتمادهم فى الأرصاد على البوصلة قبل أن تعرفها أوربا .. ورأى داجاما تجارة نشطة فى الذهب والحديد والعاج والخرز والنحاس وأصداف السلاحف والأقمشة القطنية والرقيق والفخار .. لقد عثروا دون أن يقصدوا على عالم تجارى أوسع من عالمهم الذى جاءوا منه وأكثر ثراء من أقطارهم الأوربية .

ولم يعبأ الأهلون بهؤلاء الوافدين ... كانوا — كما يقول دافيدسن — طغاما بلا صقل ولا ثراء ولا حضارة ... وينقل دافيدسن من كتاب سجل السفينة القائدة ساو جبريل فى أسطول داجاما نصوصاً تؤكد دهشة رجاله لما رأوه من معالم التقدم الحضارى.

كانت عابرات المحيط الهندى وقتئذ أكبر من سفن داجاما وأضخم .. وكل ما استرعى انتباه القوم هناك أن داجاما جاء من الجنوب.

ومضى داجاما ورجاله شمالاً واستأجروا مرشداً يرشدهم طريقهم للهند وخلفوا وراءهم مالندى الطموحة .. وفى الهند لقيهم القوم فى حذر ووجدوا

مغربيا من تونس يحسن لغات قشتالة والبندقية ، ولم يفته معنى ولأهدف مجيء السفن البرتغالية .

وتأتى سفن البرتغال عاماً بعد عام تحمل من خيرات أفريقية والشرق خيرات ، لايزدادون معها إلا جشعا .

ويذكر دافيدسن عن البرتغاليين : وتشبع فيهم وفى بحارتهم الثقة بالنفس والاعتزاز حتى استولوا استيلاء كاملا على تجارة المحيط الهندى ، لابشجاعتهم وحدها ، ولكن بمقدار كبير من الغلظة والأنانية التى لاتتردد . وقطعوا فى كل جرأة الخيوط الدقيقة المعقدة التى كانت تربط موانى الساحل بالمحيط والشرق البعيد، وخلقوا لأنفسهم مكانا فى حلقة تجارية كانت هناك منذ قرون ، وأفسدوا كل صلة نمتّها هذه الشعوب العديدة مع جاراتها .

٢ — مرحلة التخريب

ولنبدأ دراسة هذه المرحلة بما ذكره المؤرخ الهندى بانيكار :

« قد شرع داجاما وعصبته ، حتى قبل وصولهم إلى ساحل الهند ، فى أن يطبق بالقوة ادعاء مولاه أنه سيد الملاحة ومولاها . فكان يقطع الطريق دون أى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه ويدمرها تدميرا (والحادثة التالية التى يرويها لنداس ذا انديا خير مثال للارهاب والقرصنة ، التى بثّها فى المياه الهندية إذ تصادف أن التقت العمارة البرتغالية ببعض السفن غير المسلحة العائدة من مكة . فألقى فاسكودا جاما القبض عليها وكان كما يقول لنداس يعمد بعد تفريغ السفن مما بها من بضائع ، وخطر أى فرد من إخراج أى عربى منها ، إلى إصدار الأوامر بإشعال النيران فيها » . ولعلنا نحصل على تفسير لدوافع الاستيلاء على السفن من الملحوظة التى أدلى بها بادو حيث قال « أجل إنه يوجد بالفعل حق عام للناس جميعا بأن يمخروا عباب البحار ، ونحن فى أوربا نعترف بالحقوق التى يمسكها الغير علينا ،

ولكن ذلك الحق لايتجاوز قارة أوربا، ومن ثم فمن حق البرتغاليين كسادة للبحر مصادرة جميع بضائع من يخوضون البحار دون إذن منهم »[٣٥].

ويعقب بانيكار على هذا بقوله :

« وهذا ادعاء غريب ولكنه شامل ، بيد أنه شيء لم يبرح كل شعب أوربى يتمسك به بدوره بشدة ، حتى جاءت خاتمة السيطرة الغربية فى آسيا أو كادت . أجل إن شعبا آخر لم يعرضنا على الأنظار بمثل تلك الطريقة الفجة الخشنة ، ولاحاول أن يطبقه بالقوة بمثل تلك الهمجية البشعة على النحو الذى فعله البرتغاليون فى الربع الأول من القرن السادس عشر ،ولكن المبدأ القائل بأن مبادىء القانون الدولى لاتطبق خارج أوربا ، وأن ما يعد همجية فى لندن أوباريس يكون سلوكا متمدينا فى بكين (مثل إحراق قصر الصيف) وأن ليس على الشعوب الأوربية التزامات خلقية عند معاملة الشعوب الأسيوية . كان شطرا من العقيدة المعمول بها فى علاقات أوربا بآسيا »[٣٦].

وأعتقد أن قول بانيكار ينطبق على كل من آسيا وأفريقيا والحضارات القديمة فى أمريكا كحضارات المايا والانكا والازتك .

لم يترك البرتغاليين وراءهم حيث ذهبوا إلا الخراب والاضطراب .. جاءوا الإقليم — والقول هنا أيضاً لدافيدسن — وأفكارهم مليئة بالمنافسات المرة بين القوى المتناحرة فى أوربا ، وهبطوا على هذه المدنية السمحة على شاطىء المحيط الهندى بكل ما اكتسبوا من دهاء ووحشية وعنف ، وهم يتقاتلون للعيش فى أوربا . وكان عيشاً شـــحيحاً وقتها لايطيقه إلا القادرون ذوو المخلب والناب .. ولم تعرف مدنية المحيط الهندى شيئا من هذا ولم تكن تفهمه . وينقل دافيدسن عن هوايتهد « ان قسوتهم لم تقف عند حد مألوف.. تعدت المستوى المعروف . واستحالت على يد داجاما والبوكرك (من قادة البرتغال) إلى سياسة لإشاعة الفزع فى نفوس الأهالى حيث كانوا .. كانوا يجدعون أنوف ويقطعون أيدى الرجال[٣٧] . على الساحل العربى .

وعن هذه القسوة ينقل دافيدسن عن القديس فرانسيس أكسافيز ١٥٤٥ « هذه قوة حيوان كاسر لايأبه بما يأتى أو يدع ، يعرف مايريد ولايعنيه كيف يناله .. هذا فيضان من المُثُل المنحطة والعادات الشريرة قد اكتسح الناس .. تدفعهم شهوات الثراء وتحدوهم فرص ميسورة للنهب ولا تعوقهم فضيلة .. ولم تعد السرقة عندهم منكرا »[٣٨] .

وقد برهنت الأيام على أن ما خرَّبه الأوربيين فى أفريقية ومادمَّروه لم يكن من اليسير تذكره فيما بعد .

والذين أتوا بعد هذا الجيل الأول من الغزاه المخربين لم يجدوا إلا الأنقاض رأوها بلاد الوحوش والغابات ، والأطلال يلفها ظلام من الجهل بعد اشراقة الحضارة التى سبقت مجيء البرتغال والاحتكاك المباشر بالحضارة الأوربية .

وتأتى قرون الرق فتزداد القسوة وتصاب أفريقية بنزف بشرى رهيب ، حُمل من سكانها — أكثر ما حُمل — إلى العالم الجديد، بعد أن دمر المستعمرون الحضارات الأمريكية الأصيلة مثل حضارات الانكا والمايا والآزتك . وتصوغ أوربا نظرياتها العنصرية ، ويصل بها الأمر إلى النظرة إلى الافريقى باعتباره كائنا لاروح له . . ولنقرأ معا ما قاله منتسكيو فى كتابه « روح القوانين » عن الزنوج .

« إذا طُلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا فإنى أقول :

إن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم تر بُداً من أن تستعبد شعوب أفريقية لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة . والشعوب المذكورة ماهى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس . وأنفها أفطس فطسا فظيعا بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثى لها . ولايمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى — وهو ذو الحكمة السامية — قد وضع روحا — وعلى الأخص روحا طيبة — فى داخل جسم حالك السواد »[٣٩] .

والأمر لم يكن مقتصراً على أفريقية ؛ فقد كانت الإشارة إلى أن الشعوب السوداء والحمراء لاروح لها مظهراً من مظاهر الاستعمار الأوربى فى أوائل عهده بعد الكشوف الجغرافية الكبرى . وكان رجال الدين — فى مراحل الاستعمار الأولى لأمريكا الشمالية — يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان . وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل . ومن بينها نشر الأمراض الجديدة التى لم تكن عند سكان أمريكا الأصليين مناعة منها ، ومن أهمها الحصبة ؛ فكانوا يوصون بأن يُمكَّن الأمريكيون الهنود الحمر من الاستيلاء على الأغطية (البطاطين) التى كان يتغطى بها المصابون بالحصبة . وكانوا يرون هذا اجراء يتفق تماما مع الدين[٤٠] .

وينقل لنارد وولف نقلا عن أحد قناصل بريطانيا فى الكونغو « إن أية دولة تستطيع امتلاك أى جزء من أفريقية بالقماش والخمور .. ومنها من استولت على مساحات كبيرة من الأرض نظير بضعة أثواب مطرزة ومجموعة من المناديل وأغطية الرأس وزجاجات الخمر[٤١] » .

وأصبحت أفريقية فى نظر الغرب قبيلا من الناس لاتاريخ ولاحضارة .. تمر بها الحياة رتيبة رهيبة .. حياة من أفراح الطفولة وسذاجتها ، وعنف الوحش ، وهزيم الرعد ، واندفاع العاصفة .. الأمس هو اليوم والغد ، كأنها انقطعت عن حساب الزمن .

٣ — اليقظة المعاصرة

وتعود أفريقية لتصل حاضرها بماضيها بعد احتكاك عالمى تحطمت فيه أسوار الصمت التى حاول الاستعمار أن يضربها حول القارة .. وخرج الافريقيون فى حروب حاولت أوربا أن يكونوا لها وقودا .. ورأوا عوالم جديدة وحياة جديدة .. وأخذ نبض الحياة ينتظم فى القلب الافريقى ، والغشاوة ترتفع عن الأعين لترى الحاضر وتكشف الماضى وتربطهما معاً لتواكب التطور العالمى .

هذه هى اليقظة الجديدة فى أفريقية .

وأخذت الكشوف الأثرية الحديثة تميط اللثام عما بقى من أطلال الحضارات الافريقية القديمة فى أصالتها المحلية وارتباطاتها القارية والمحيطية .. ومن أهم البحوث الحديثة التى أجريت للكشف عن هذه الحضارات الافريقية ما قام به كركمان ماتيو فى شرق أفريقية وفريمان جرانفيل[٤٢] وبينت الكثير من معالم الحضارة هناك، وأنها كانت تفاعلا بين المؤثرات الإسلامية — عربية وفارسية وأفريقية — ثم يتتبع بعد هذا خصائصها ويربطها بالأجزاء الداخلية من القارة .

٤ — النظرة العربية

ومع هذه النظرة الجديدة التى تعترف بحضارة القارة وتسعى إلى كشفها من جديد تلتقى النظرة العربية التى سجلها المؤرخون والجغرافيون العرب فى مؤلفاتهم .. ولنذكر لذلك نماذج من المسعودى فى كتاب مروج الذهب[٤٣] وان اختلط بعض ماذكر بأقوال أثبت البحث العلمى فيما بعد عدم صحتها ، وتلك سنة التطور العلمى .. وبخاصة فيما يتعلق بخصائص الحيوان هناك .

يقول المسعودى فى مروج الذهب عن الزنوج « والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغاء يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم ويرغبهم فى التقرب من بارئهم ويحثهم على طاعته ويرهبهم من عقابه وصولته ويذكرهم مَن مضى مِن ملوكهم وأسلافهم ... »[٤٤] ثم يذكر نظامهم وقوتهم فى الحرب وتقديسهم العدل ، وعزلهم الحاكم وقتله إذا جار ، ومهارتهم فى إصابة الهدف إلى مستوى لم يشهد به للعرب أنفسهم .. وصفوة القول أن النظرة إلى التراث والحضارة الافريقية مرت — من وجهة النظر الأوربية — بثلاث مراحل وأن هذه المراحل مرتبطة بالعلاقة بين الغرب وأفريقية من ناحية والجهود الافريقية التى تبذل فى استعادة القارة مكانتها :

مرحلة أولى من الإعجاب بما فى القارة من معالم الحضارة .

مرحلة إهدار أعقبه جهل لحق تدمير الحضارات الافريقية .

مرحلة إعادة كشف أخذت بواكيرها تؤكد عمق التاريخ الافريقى واستمراره ، لولا الصدمات العنيفة التى لقيتها أفريقية من الاستعمار.

وإذا كانت أوائل هذه الصدمات قد أدت إلى نوع من الاغماء الحضارى.. فقد كانت أواخرها باعثة على اليقظة الحضارية التى تعيشها القارة فى تطورها المعاصر .

الموضوع الثالث

عن القيم الافريقية

نقطة ثالثة تربط بالعمق الحضارى فى أفريقية والروابط الحضارية بين أجزائها وهى القيم الأخلاقية المرتبطة بهذه الحضارات .

وأبادر أولا فأقول : ليس المقصود من هذا العرض إبراز افريقية قارة لا أخطاء فيها ولاحروب ولاعداوات.. فهذا التصوير والتقدير لامكانله فى عالم الحقيقة .

وإنما الذى ترمى إليه هذه الدراسة هو إبراز جوانب من« أخلاقيات» أفريقية قبل تفاعلها مع الحضارة الأوربية .. وهذه الجوانب تعتمد بدورها على مراجع « أوربيه » .

فلقد ظلم الأوربيون تاريخناعندما زعموا أنالقارتين آسياوأفريقيا، كانتا تعيشان فى صراع دموى،وما عرفنا القانون الا حين جاءت أوربا لتقضى على الفوضى والبربرية القاسية .

ويختار دافيدسن قبيلة الزاندى — التى وصفتها أوربا بأنها من أكلة لحوم البشر وأطلقوا عليها نيام نيام وأصبحت صفة النمنمية عالقة بها — ويستند فى عرضه للزاندى إلى أبحاث ابفانز برتشارد فيقول عن شرعة القتال عندهم : « قيل لى إن هدف الحرب أن ينسحب عدوك بأقل خسارة فى

الأرواح والمتاع . وعليك أن تتجنب تطويقه تطويقا كاملا[٤٥] كيلا ييأس من النجاة فيلقى بنفسه فى الميدان مندفعا آملا فى النجاة أو حاقداً عليك لينتقم منك »[٤٦] . وهكذا يقاتل الزاندى ويتركون فجوة فى مؤخرة الجيش ليفلت منها العدو إن أحس الهزيمة . وكان من قوانينهم ألا تبدأ الحرب إلا فى الأصيل كى يتاح لمن يسوء حظه فى الصراع أن ينسحب مستتراً بالظلام .. ويعلق برتشارد على ذلك فيقول .. إن القبيلة لم تراع هذه القاعدة كل حين ، ولن يفيدها هذا فنحن لم ندّع لها النور كله وسماحة الطبع والمزاج . كل الذى أردنا قوله أن أعراف الحرب هنا — أى فى أفريقية — أقل غلظة وقسوة وأقرب إلى العقل — إن كان فى الحرب عقل — من مثيلاتها فى أوربا .

ويذكر هوايتواى عن أعراف الحرب فى الهند فيقول[٤٧] . لم يكن لأحد أن يحارب ليلا . يضع المحارب سلاحه مع مغيب الشمس ولا يحمله إلا إذا أشرقت . كانت الفئات المقاتلة حين يجنها الظلام تنام متقاربة لا تخشى البيات أو الفتنة .. وفى الصباح يلبس القوم دروعهم ويتحدثون فى أمن ويتبادلون ما يملكون من أرز أو طعام .. وتقرع طبول الحرب فيهرع كل إلى صفه .

ونستطيع أن نستعيد ما سبق قوله من قسوة أوربا فى حروبها وغزواتها المدمرة فى أمريكا وأفريقيا وآسيا .. وما زرعته هذه الحروب من « منطق جديد » و « مفاهيم جديدة » انعكست على تعامل القبائل بعضها مع بعض وسريان روح الشر الجديد فى القارة .

وفى هذا الضوء نستطيع أن نزن ما حدث فى تجارة الرقيق على سبيل المثال ؛ فمع أن هذه التجارة كانت قائمة قبل مجىء البرتغاليين ، ولم تكن مقتصرة على أفريقية وحدها ، وإنما كانت سائدة فى العالم كله ، إلا أن معاملة الرقيق كانت تتباين تباينا واسعا من موطن حضارى إلى موطن آخر .

وفى مصر القديمة كانت القوافل تأتى بالأقزام من وسط أفريقية .. ولكن كانت لهم منزلتهم فى قصر فرعون . كانوا يحتفظون بثياب الملك إلى جانب

منادمته .. وحفظ ثياب الملك كان يرتبط بعقيدة المصريين القديمة فى تأليه الملوك . وكانوا يخشون أن يلى أمر الملابس موظف من حجم عادى فتسول له نفسه ارتداء الثياب أو تجربتها على الأقل[٤٨] ثم كانت لهم رحلاتهم وأموالهم وقبورهم التى سجلوا على جدرانها ماقاموا به من أعمال يفخرون بها . هذا فى أقدم عصور الحضارة الافريقية .

وعندما جاء الإسلام قيّد مصادر الرق وفتح الأبواب لتحريره والقضاء عليه. والنتيجة العملية لهذا أن استطاع العالم العربى والإسلامى أن يذيب العناصر التى دخلته ، ولم تعد فيه مشكلات عنصرية إلا ما يثيره الاستعمار لأسباب سياسية ، بينما لازال الغرب يتعثر فى هذه المشكلة سواء أكان هذا التعثر فى داخل القارة نفسها أوفى العالم الجديد، ولازالت العصبية تطل برأسها بتحديد حقوق الإنسان فى جنوب أفريقية وروديسيا والمستعمرات البرتغالية بل وفى قلب الولايات المتحدة نفسها حيث تصدر مطبوعات حقوق الإنسان تدين التفرقة العنصرية فى المؤتمرات بينما التفرقة العنصرية حقيقة من حقائق الحياة اليومية فى الولايات المتحدة .

فالدفع العنيف لمشكلات الرقيق فى أفريقية كان فى الواقع على يد الاستعمار الغربى، وفى حمى التقليد انساقت الشعوب والقبائل الافريقية العربية والإسلامية إلى هذا المنحدر الوعر الذى تلطخت صخوره بدماء كثير من الضحايا .

وعندما بدأت الافاقة من الرق كانت الشعوب الافريقية والأسيوية — بما تحمل من مواريث تستند — أكثر ما تستند — إلى عقائدها — أسرع إفاقة من قوى الاستعمار الغربى.

ومن هنا تبدو أهمية تأريخ النصوص التى استند اليها هرسكفتس، فى سوء معاملة الافريقيين والعرب بعضهم بعضا وسريان العنف والرق فى القارة. هذا التاريخ ينبغى أن يفصل فى وضوح بين المرحلة السابقة للاستعمار الأوربى، وما حدث فى عهود الاستعمار؛ إما على أيدى المستعمرين أو اتباعا للمنهج الدامى الذى ساروا عليه ، ثم ما يحدث الآن عهد الانطلاق التحررى[٤٩] .

خاتمة ومنطلق

هذه هى الجوانب الرئيسية التى وددت أن أدير حولها الحوار فى فكر هرسكفتس ومستندا إلى مراجع من الشرق والغرب .

ومن اليسير بعد هذا متابعة جوانب النقد الصغرى.

١ — فإذا ماذكر المؤلف صغر مساحة الأرض الافريقية التى استولى عليها الأوربيون فهو ينسب مساحة الأرض المنتزعة إلى المساحة الكلية للقطر الذى يتحدث عنه لا إلى المساحة المعمورة منه . ولتوضيح ذلك حسابيا — بمثال من مصر فنحن لانستطيع أن ننسب كثافة السكان عندنا إلى المساحة الكلية ، بينما المعمور من أرضنا يعادل ١/٣٠ من المساحة الكلية . وقل مثل ذلك المعمور فى الجزيرة العربية ونسبته إلى المساحة الكلية . وفى هذا الضوء نستطيع النظر إلى مساحة الأرض التى استولى عليها الأوربيون فى كينيا وفى روديسياوجنوب أفريقية .. فالرقم الذى يذكره فى ذاته صحيح من الناحية الحسابية البحتة ، ولكن الدقة العلمية وسلامة العرض تقتضى ذكر المساحة المعمورة إلى جانب المساحة الكلية .

ومن الممكن تطبيق ذلك على دراسته للأجور والخدمات التعليمية والصحية .

ففى القطر الواحد — حيث تمارس التفرقة العنصرية — كما فى جنوب أفريقية — ينبغى التميز الدقيق بين نصيب كل من الافريقيين والأوربيين فى الخدمات ومعدلات الدخل التى يحصلون عليها، والفروق الرهيبة بين حياتهم وحياة الأوربيين . ويمكن فى هذا أن نرجع إلى تقارير الأمم المتحدة والتقارير التى كتبها كتاب منصفون حتى ينجلى الوجه الحقيقى للحياة فى هذه الأجزاء من أفريقية .

٢ — والحديث الآن فى أفريقية ليس « إذابته العناصر والحضارات البشرية فى كيان تركيبى أو مزجى جديد » وإنما وحدة تسع التنوع وتتعايش فيها الفروق وهدفها التقارب والتفاهم .

يقول سنجور « لاينبغى أن نظل نحن دائما نحن . وأن نتجه إلى الآخرين لنعطى ونتقبل . وينبغى أن تظلوا عربا . وبغير ذلك لن تجدوا ماتعطوه لنا . وحديثى عن العروبة وهى المصدر المشع بالفضائل الخالدة للبدو. وما فعلناه منذ آلاف السنين هو ما نواصل فعله الآن نحن السودانيين الجنوبيين»(٥٠) .

ثم يوجه حديثه إلى المصريين قائلا:

« إنكم أيها المصريون قد اتخذتم الصقر ليكون رمزاً متوسطاً بين نسر الصعيد المصرى وحية الوجه البحرى ، ذلك لأنه يبسط جناحيه فيرمز للتوازن والإنسانية،وليس من قبيل المصادفة أن تكون ألوان علمكم الثلاثة : الأسود والأبيض والأحمر وهى الألوان الأساسية للتصوير التقليدى فى أفريقية كلها »(٥١) .

والذى نحسه فيما عبَّر عنه سنجور هو النظرة الشاملة لافريقية كوحدة حضارية كبيرة ، ودور العرب القديم والمستمر فى إثراء هذه الحضارة متعاونا مع إخوانه — لاأقول جنوب الصحراء؛ ففى جنوب الصحراء أصول عربية عريقة ، وإنما مع من ارتضوا لأنفسهم الزنوجة شعارا يقابل العروبة ، ويصافحها فى نفس الوقت من أجل افريقية جديدة .

إن التطور الجديد فى أفريقية فى حاجة إلى جهد علمى منظم ودائب. والقوى الاستعمارية لاتدع أفقا دون أن تعمل فيه ، من أجل مساندة النزعات الانفصالية وتغذيتها . وهذه التغذية والدعم تستهدف دفع خطوط المقاومة أو التميز الافريقى نحو الشمال . وبنظرة شاملة إلى أفريقية يمكن أن نرى:

١ — أن الخط بين نطاق السيطرة البيضاء فى جنوب القارة وافريقية المدارية يزحف شمالا . والنموذج أمامنا واضح بما حدث فى روديسيا وما يحدث فى جنوب أفريقية وفى موزمبيق وأنجولا حيث السيطرة البرتغالية .

٢ — أما فيما بين أفريقية الزنجية والعربية فهناك دعم مستمر لأى اتجاه يؤدى إلى إضعاف الحضارة العربية والوجود العربى والإسلامى فى قلب القارة ، ودفع خط السيطرة العربية الإسلامية إلى الشمال .

٣ — محصلة ذلك : توسع فى السيادة الأوربية على حساب العناصر الافريقية الأصيلة ، وتوسع فى السيادة الافريقية على حساب العروبة والإسلام ، ولو بسلخ هذه العناصر من تراثها وتطورها الطبيعى .. مما يؤدى إلى تقلص الوجود العربى والإسلامى فى أفريقية .

٤ — إن القارة الآن — مع الفكر العلمى — تحتاج إلى استراتيجية كبيرة تقابل فيها ذاتها وترسم خريطة مستقبلها بأيدى أبنائها .. فليست الكلمة الأخيرة دائما للعلم .. وإنما لابد له من قوة تترجم مافيه من صواب إلى أرض الواقع .

معهد البحوث والدراسات العربية
اتحاد الجامعات العربية

حواشى البحث

١ — UNESCO : Guide for the preparation of the general history of Africa, Doc. SHC/WS/198, Paris 18 Nov. 1971. Translated from the French.

هذه الوثيقة تعرض للاتجاهات الرئيسية التى ينبغى أن تراعى عند كتابة التاريخ الافريقى . وتراجع أيضا لائحة ونظام اللجنة العلمية العالمية لكتابة التاريخ العام لافريقية وثيقة رقم: SHC/MD/16 بتاريخ ١٧ مايو (آيار) ١٩٧١ الصادرة عن اليونسكو.

٢ — HAILEY (Lord) : An African Survey. Revised 1956, pp. 1600 - 1616. O:U:P. 1957.

وفيها يدرس تنظيم البحث وقيام المؤسسات المشتركة بين الدول الاستعمارية جنوب الصحراء . ومن أهمها لجنة التعاون التكنولوجى فى أفريقية جنوب الصحراء (C.C.T.A.) والمجلس العلمى لأفريقية جنوب الصحراء (C.S.A.)

٣ — Secretariat for ENCYCLOPEDIA AFRICANA : Information Report, No. 2., September 1962, Accra.

٤ — Melville J. HERSKOVITS : The Human Factor in Changing Africa, London 1972.

وترجمة المؤلف مضافة إلى الأصل الإنجليزى . وانظر أيضا ما جاء عن تاريخ حياته فى المرجع الآتى :

William R. BASCON & Melville J. HERSKOVITS (Editors) : Continuity and Change in African Cultures, Chicago, 1959, p. 500.

٥ — SELIGMAN, G. : Egypt and Negro Africa. London 1934.

٦ — HOGBEN, S.J. : The Muhammedan Emirates of Nigeria. Oxr. U.P. 1950.

٧ — MEEK, C.K. : The Northern Tribes of Nigeria. Oxf. U.P. 1925.

٨ — DAVIDSON, B. : Old Africa Rediscovered. London. 1961.

وللكتاب ترجمة عربية قام بها . جمال م. أحمد وصدرت عن دار الثقافة ببيروت باسم « أفريقية تحت أضواء جديدة » . وللسيد المترجم مقدمة بها إضافات لموضوع الكتاب .

٩ — راجع مؤلفات MOYEROWITZ, E. :

(ا) The Sacred State of the Akan.

(ب) The Akan Traditions of Origin.

(ح) The Akan of Ghana : Their Ancient Beliefs.

(د) The Divine Kingship in Ghana and Ancient Egypt, London 1960.

(هـ) At the Court of an African King. London 1962

والكتاب الأخير مترجم إلى العربية فى مجموعة الألف كتاب رقم ٦٣٣ سنة ١٩٦٧ .

١٠ — BOVILL, E.W. : The Golden Trade of the Moors. Oxf. U.P. 1963.

١١ — نشرت جامعة القاهرة ترجمتها العربية تحت عنوان :

« أسس الافريقانية أو الزنجية والعربية » ١٦ فبراير (شباط) ١٩٦٧

وإذا كان اصطلاح الافريقانية أقرب — نطقا — من الأصل الإنجليزى فأرجو أن يكون العنوان الآتى أقرب إلى طبيعة اللغة العربية وهو « أصول الافريقية أو الزنوجة والعروبة » .

١٢ — ABOU BAKRE, A. : L'Egypte ancienne et l'Afrique Nègre, R.A.U. Premier Festival Mondial des Arts Nègres. Dakar, Republique du Sénegal, 31 mars au 24 avril 1966.

وقد تفضل الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبوبكر مشكورا باعارتى

الأصل العربى غير المنشور — للبحث ، وعليه اعتمدت فى الاقتباسات. ولم أذكر أرقام الصفحات لأنها غير مقيدة فى الترجمة الفرنسية .

١٣ — VIDAL DE LA PLACHE : Principles of Human Geography. English Translation, London 1959. pp. 473 - 474, and plate 2, p. 515.

وراجع فى الروابط عبر الصحراء :

عبد العزيز كامل : جغرافية الإسلام فى أفريقية . الفصل السابع عن الروابط الحضارية بين مصر وغرب إفريقية ص ٧٧ — ٨٩ . مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٤ — سلجمان (١٩٣٤) ص ١٤ وص ٦٣ — ٦٥ .

١٥ — هجبن (١٩٣٠) ص ١٩٦ .

١٦ — ميك (١٩٢٥) ص ٥٩ .

١٧ — د. عبد المنعم أبوبكر (١٩٦٦) .

١٨ — راجع الحاشية رقم ٦ وتلخيص الأبحاث يعتمد على ماذكره الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبوبكر فى بحثه .

١٩ — ياقوت : معجم البلدان ، جزء ٤ صفحة ٤٢٠ — ٤٢١ ، طبعة بيروت.

٢٠ — راجع : أحمد بن الأمين الشنقيطى : الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، باشراف فؤاد السيد ، ص ٤٢٢ — ٤٢٤ . مطبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٦١ .

٢١ — TRIMINGHAM, S. : Islam in West Africa. p. 2. Oxf. U.P. 1961.

٢١ — جون لويس بركاردت : رحلات إلى النوبة (الترجمة العربية ص ٣٩ — ٤٠ ، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٢٢ — سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، هامش صفحة ٢٩٠ النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ .

٢٣ ــ راجع خلاصة للعلاقة بين سلطنة المماليك والسودان الغربى والحبشة فى : سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ٢٤٢ ــ ٢٥٠ وفى حواشى الصفحات مراجع وافية للتوسع فى الموضوع .

٢٤ ــ راجع طرفا من سيرته فى صبح الأعشى للقلقشندى جزء ٥ ، ٢٩٤ ــ ٢٩٦ ، وكانت رحلته إلى مصر فى عهد السلطان قلاوون (١٢٧٩ ــ ١٢٩٠ م) .

٢٥ ــ رحلة ابن بطوطة : جزء ٤ صفحة ٣٩٩ ، تحقيق وترجمة
C. DEFREMERT & B. R.
SANGUINETTI. Société Asiatique. Paris 1922.

٢٦ ــ عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية . صفحة ١٤٥ ــ ١٦١ وبالكتاب ملحق عن المخطوطات العربية فى نيجيريا ص ١٦٢ ــ ١٧٨ .
حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ، الباب الثالث ١٩٧ ــ ٢٧٣ عن انتشار الإسلام فى غرب أفريقية؛ ففيه معلومات وهوامش وافية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٧ ــ أبوعبيد البكرى : كتاب المُغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، ص ١٧٩ . وهو جزء من أجزاء الكتاب المعروف باسم : « المسالك والممالك » ط دى سلين ، باريس ١٩١١

٢٨ ــ نفس المرجع ص ١٨٥ .

٢٩ ــ نفس المكان .

٣٠ ــ ياقوت : معجم البلدان ، جزء ٤ ص ٤٣٢ ط. بيروت

٣١ ــ بوفل (١٩٦١) ص ٩٤ ، وكان هذا فى عهد منسا موسى .

٣٢ ــ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٢ : ٣٨٢ ط. وانظر أيضاً المقريزى : السلوك ١ : ٨٨٩ حاشية ٢ لزيادة ، ٢ : ٨٣٧ حاشية ٣. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر : القاهرة .

٣٣ — المقريزى : السلوك ٢ ، ١٠٣ ومن المراجع الحديثة انظر حسن أحمد محمود (١٩٥٨) ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

٣٤ — دافيدسن (١٩٦١) الفصل السابع ص ١٦٤ — ١٧٨ من الأصل . ٢٦٢ — ٣٨٥ من الترجمة. وهذا الفصل هو المرجع الأساسى لدراسة النظرة الغربية المقابلة المنصفة للتاريخ الافريقى،ويعتمد على مصادر أصيلة عاصرت الأحداث التى عرض لها الكاتب .

٣٥ — بانيكار ، ك.م آسيا والسيطرة الغربية . ص ٤٠ ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٢ .

٣٦ — نفس المرجع ص ٤٠ ، ٤١

٣٧ — دافيدسن(١٩٦١) ص ١٦٨ .

٣٨ — نفس المكان .

٣٩ — انظر دراسة لهذه النظرة وتحليلها ودوافعها فى : محمد عوض محمد (١٩٥٧) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ص ٣٧

٤٠ — نفس المرجع ص ٣٨ .

٤١ — WOOLF, L. : Empire and Commerce in Africa. London 1922. pp. 237 - 240.

وفى هذه الصفحات يشرح فى وضوح وسفور بعض أساليب الاستعمار فى الحصول على التوقيعات من الزعماء الافريقيين وما استخدموه من غش وخديعة .

٤٢ — راجع قائمة مراجع أبحاثهما فى : دافيدسن (١٩٦١) ص ٢٧٤ .

٤٣ — المسعودى : مروج الذهب ١ : ٢٣٥ — ٢٥٣ ط . البهية المصرية ، القاهرة ١٣٤٦ . كانت وفاة المسعودى ٣٤٦ هـ .

٤٤ — نفس المرجع ١ : ٢٤٤ .

٤٥ — يسمونه فى لغتهم كينجى أبورو Kenege Aboro

٤٦ — دافيدسن (١٩٦١) ص ١٧٠ — ١٧١ الأصل ، ٢٧٠ — ٢٧١ الترجمة .

٤٧ — نفس المرجع ص ١٦٨ الأصل ، ٢٦٧ — ٢٦٨ الترجمة .

٤٨ — REUSCH, R. : History of East Africa. Stuttgart 1954. p. 14.

وفى الصفحات التالية على ص ١٧ يذكر رويش جانبا من حياة الأقزام والروابط الحضارية بين مصر الفرعونية وشرق أفريقية .

٤٩ — (أ) فى موضوع التفرقة العنصرية يراجع :

DUNCAN, P. : South Africa's Rule of Violence. London 1964.

UNESCO : Apartheid, 1969.

وفيه وثائق هامة عن المظالم التى يحيا فيها الافريقيون فى جنوب أفريقية تستند إلى مصادر أصيلة .

(ب) ومن وجهة نظر عربية إسلامية معاصرة يمكن الرجوع إلى :

ابراهيم هاشم الغلالى : لا رق فى القرآن . دار القلم (بدون تاريخ) .

عبد العزيز كامل : الإسلام والتفرقة العنصرية : اليونسكو ١٩٧١ — بالعربية والإنجليزية والفرنسية .

٥٠ — ليوبولد سنجور : (١٩٦٧) الترجمة العربية ص ٥٥ ، ٥٦ .

٥١ — نفس المرجع ص ٥٦ .